دين الفطرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

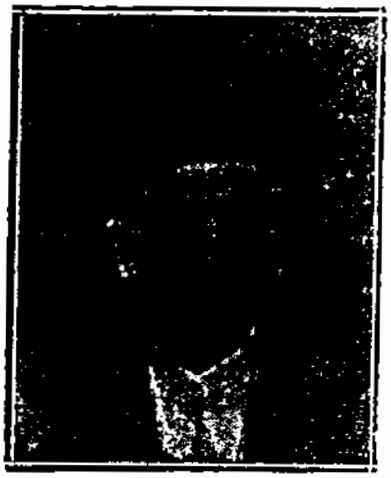

عدت إلى الشرق الإسلامى عدوى من الغرب فى أمر الدين لم تكن لتتطرق إليه لو كان يدرى ما الدين الذى بيده ، أو كان يدرى فرق ما بين الدين فى الغرب وبين الاسلام

لقد حاول الغرب كثيراً أن يوفق بين دينه وبين العلم فلم يستطع ، لا لجمود رجال الدين فيه هذه المرة ، ولكن لنصوص فى كتابه ناقضت ما أثبته العلم واستعصت على التأويل ، كالنص على عمر للدنيا محدود لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين فى حين أن العلم اليقينى يقدر عمرها بالملايين . وكان من شأن ذلك أن حمل بعض كتابه مثل ماتيو أرنولد وبعض قسيسيه على أن ظنوا أن الدين قد خذله الواقع فلم يبق ما يستند إليه إلا الشعر ، أى إلا ما يتمثل فى ذلك الدين من معان شعرية وقيم أخلاقية لا غنى للانسانية عنها بحال . وقرأ ذلك وشبهه بعض مقلدة الغرب من المسلمين الذين يتخبطون فى حبل الغرب كيفما اتخبط ، فظنوا أن ما ينطبق على الدين هناك ينطبق على الدين هنا من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عن الدينين هل هما مشتركان فى مخالفة اليقينى من العلم حتى يشتركا أيضاً فيما يترتب على تلك المخالفة من حكم . ومن هنا نجمت هذه الداجة التى تحاول أن تطفئ نور الله بأفواهها حين تدعو من ناحية إلى اعتبار القصص القرآنى فنا يرمز إلى قيم أخلاقية من غير أن يقوم على حقيقة تاريخية ، ومن ناحية أخرى إلى تأويل نصوص الدين وأحكامه وتقييدها وتخصيصها بما لم يقيدها أو يخصصها به الله ولا رسوله ولا جماعة المسلمين من لدن أن نزل القرآن إلى هذا العصر الذى فقد الشرق فيه اتزانه ، وكاد أن يبيع بأبخس الثمن إيمانه

ومن العجيب أن الإسلام الذى يرمونه بداء غيره فينسبون إليه معاداة العلم أحياناً ومنافاة العقل أحياناً ومجافاة الفطرة أحياناً ، هو وحده من بين الأديان السماوية الذى احتضن العلم وتحاكم إلى العقل وميز الحق بخصائصه . وما عليك إلا أن تردد النظر فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الاسلام هو دين العلم والعقل والحق . وهو وحده من بين الأديان السماوية الذى عرف الفطرة وسماها باسمها ووصفها بأوصافها وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس . وآية ذلك قوله تعالى من سورة الروم

(فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد غفل المسلمون عن هذه الآية بأنظارها غفلة يعجب منها كل ذى لب حتى يضرب كفا بكف ! فلا هم أطاعوا أولها ، ولا هم استمدوا التثبيت من آخرها ، ولا هم فقهوا ما بين ذلك منها ليتخذوا منه هادياً ودليلا وحجة تقوم وتدحض كل ما افترى أو يفترى الخصوم :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) : كلمات كل منها حجة قائمة وقوة قاصمة تصدع وتدفع كل من يرمى الإسلام بما لا يليق بدين الله

إن فكرة الفطرة وحدها لا يمكن أن تخطر ببال بشر من عند نفسه فى العصر الذى نزلت فيه الآية الكريمة ولا فى القرون الكثيرة بعده ، لأنها لم تنشأ بعد الإسلام إلا بنشوء العلم الحديث فى الغرب . ومن يدرى ! لعل الغرب استوحاها مما نقل إليه فى القرون الوسطى من كتب الاسلام

ونسبة الفطرة إلى الله الحق جل جلاله تشريف أى تشريف وإكبار أى إكبار للفطرة كلها ولفطرة الانسان على الأخص عليها المقصودة هنا بالذات . وهى كفكرة الفطرة لا يمكن أن تخطر ببال بشر من عند نفسه ، لا فى عصر نزول الآية الكريمة ولا فيما

بعدها من العصور ؛ فإن الانسانية حتى فى عصر العلم الحديث هذا لم تهتد بعد إلى أن فطرة الانسان هى من عند فاطر الكون، وأنها جزء من الفطرة عامة لها حكمها وإحكامها . فكما أن الكون قد فطره فاطره على سنن وقوانين لا تتخالف ولا تتخلف كشف عن بعضها العلم الطبيعى الحديث ، كذلك الانسان فطره فاطر الكون على سنن وقوانين لا تتخلف ولا تتخالف لا مع نفسها ولا مع غيرها من سنن الله فى الخلق . وفى نسبة فطرة الانسان إلى فاطرها سبحانه يتمثل الفرق بين الانسان وبين دين الغرب الذى يقول بأن الانسان مفطور على الاثم . فالاسلام بتلك النسبة الكريمة يرفع الانسانية رفطرتها إلى الأوج ، ويفتح أمامها الباب واسعاً إلى السعادة والترقى الذاتى ، فى حين أن نسبة الفطرة الانسانية إلى الاثم توصد هذا الباب أمام الانسان وتنزل بفطرته إلى الحضيض

ومن عجائب تلك الآية الكريمة ودلائلها الباهرة وصفها الفطرة بأخص أوصافها وهى الاطراد والثبوت وعدم التخلف : (لا تبديل لخلق الله) . ووصف فطرة الانسان خاصة بأخص خصائص فطرة الكون عامة من الاتساق والاطراد والثبوت ، هو برهان على برهان أن القرآن من عند فاطر الفطرة سبحانه ؛ فإن الانسانية بعلومها الطبيعية الحديثة إذا كانت قد اهتدت إلى اطراد الفطرة فى المادة والطاقة ، فإنها لما تهتد إلى الفطرة ولا إلى اطرادها فى الاجتماعيات . فهى فى فلسفاتها ومذاهبها الاجتماعية فى البلبلة والاضطراب الذى ترى ، والذى لا ترى له مثيلا فى الطبيعى من العلوم

وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فى موضعها من الآية ليس فقط وصفا للفطرة التى فطر الحق سبحانه عليها الانسان وغير الانسان من حيث اطراد السنن وثبوتها ، ولكنه أيضاً أمر وتشريع ألا يبدل الانسان دين الله بتشريع من عنده كما فعل المسلمون ويفعلون منذ اتصالهم بأوروبا فى القرن التاسع عشر حين أخذوا ويتخذون منها إماما ، ومن قوانينها ونظمها الاجتماعية بديلا من أحكام الله . ثم هو أيضا توكيد ، أى توكيد لما أمر الله به فى صدر الآية الكريمة من إقامة الوجه للدين فى تصميم وعزم ، وانصراف كلى إليه ، وميل عن كل ما سواه ، وإلا تعرض فى روحه واجتماعياته لكل ما يتعرض له ممن يخالف قوانين الفطرة وسننها فى المادة وما إليها.

ومن العجيب أن الإنسان مقبل كل الإقبال على الانصياع لما يعلم من قوانين الفطرة فى المادة والطاقة لا يجترئ على مخالفتها فى معامله ولا فى مصانعه ، فنال بذلك ما نال من القوة المادية الهائلة التى حملته وتحمله على الغرور والاغترار ، ثم هو منصرف انصرافا كبيراً عن الانصياع لقوانين الفطرة فى الروح والاجتماع بانصرافه عن الإسلام دين الفطرة : دين الله ، واجترائه عليه بالشك والتشكيك ، والاهمال والتجريح ، أو بالتأويل والتبديل ، والتحريف والتعديل ، كيفما شاء هواه . فكان عاقبته أن صار قزما فى الروح عملاقا فى المادة ، أو قزما فى الناحيتين الروحية والمادية كليتهما . وكان عاقبة المسلمين بتركهم الدين وانخداعهم عنه ما نرى من الضعف والمهانة حتى اجترأ عليهم من لم يكن يدفع عن نفسه ، وكان عاقبة الغرب حين لم تجد قوته المادية قوة روحية تكبح جماحها أن تعاورته الخطوب ودمرته الحروب وفرقته المذاهب والأهواء شيعا لا اتفاق لها ولا أمل فى اتفاق

ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وأكبرها وأبهرها وصفها الاسلام بأنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس . وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره ، فضلا عن أن يسبق إليه فى القديم وفى الحديث . والانسانية إلى الآن لا تعقل حتى إمكان تحقيقه ؛ فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوما ما إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع الوجوه . والمسلمون فى شغل بما ينبذ إليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى فى أيديهم والنور الذى فوق أبصارهم ، وعن النعمة الكبرى التى من الله عليهم بها فى الاسلام

وليس وصف الاسلام بأنه نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس من باب المبالغة كما قد يظن بعض الناس ، فليس فى الآية الكريمة من أدوات المبالغة ولا من قراتها شىء . بل هو وصف دقيق للدين الذى أنزله وكمله وأمر الناس بإقامة الوجه له مائلين عما سواه . فهو وصف محيط شامل لتمام انطباق دين الله على الفطرة التى فطر عليها الناس حتى كأنما هو هى ، لا تخالفه فى شىء ولا يند عنه منها شىء . وفرق بين المبالغة وبين هذا التعبير الدقيق